تجلّيات علم اللغة الحديث في أدب الجّاحظ (ت255هـ)

م.د. مازن داود سالم الربيعي

كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة بابل

The manifestations of modern linguistics in the literature of Al-gahidh

Dr. Mazin Dawood Salim Al-Rubei

College of Education for Human sciences\ University of Babylon

mazndawd16@gmail.com

Abstract

In more than one thousand and one hundred years ago this research discovered what Al-gahidh did reach about an accurate understanding corresponds to a large extent as provided by the Modern Language scientists from advanced definitions of the language with the aid of what has been achieved in the development of large linguistic knowledge in recent centuries. This research pointed to the linguistic features that common understanding in what he called Al-gahidh statement and regular varieties have connotations of the word and the signal line and the holding of the event, and what he called Modern language, and as a system of signs and symbols.and this research found that the preferred fathom the lead in this field Al-gahidh Arab world as it does not exceed the molar pole in rooting term, and all the linguists who have linguistics after him.They depend on him.

Keywords: manifestations, Al-Jahiz, linguistics.

المُلخص

كشف البحث عن توصل الجاحظ قبل أكثر من الف ومئة سنة، إلى فهم دقيق يطابق إلى مدى بعيد ما يقدمه علماء اللغة المحدثون من تعريفات متقدمة للغة مستعينين بما تحقق من تطور كبير في المعرفة اللغوية في القرون الأخيرة. وقد أشَّر البحث ملامح ذلك الفهم اللغوي المشترك في ما سماه الجاحظ بالبيان وأصناف الدلالات المنتظم لها من لفظ وإشارة وخط وعقد وحال، وما سمَّاه المحدثون باللغة، وكونها نظاما من الإشارات والرموز. ووجد البحث أن فضل السبق في سبر غور هذا الميدان لا يتعدى العالم العربي الجاحظ إذ كان قطب الرحى في تأصيل المصطلح، وكل اللغويين الذين درسوا علم اللغة من بعده هم عيال عليه.

الكلمات المفتاحية: تجليات، الجاحظ، علم اللغة.

تجلّيات علم اللغة الحديث في أدب الجّاحظ (ت255هـ)

مقدمة:

يزخر التراث العربي بما خلفه دارسو الادب من علماء هذه الأمة من تراث يعد الأضخم في تاريخ الانسانية. ولعل ما حظيت به المعرفة اللغوية يعد النصيب الأوفر من اهتمام علماء العربية القدماء؛ لأنها الوعاء الحافظ لذكرياتهم عن ماضيهم الحافل أيام كانوا سادة الارض، فضلا على ارتباطها المباشر بالنص القرآني الكريم الوعاء الحافظ للغة العربية.

يعد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) أحد أهم أعلام الأدب العربي في العصر العباسي، ومن أبرز علماء العربية الذين رفدوا التراث العربي بمجموعة كبيرة من المؤلفات النفيسة التي نيَّفت على المئة والسبعين كتابا، وقد انماز ما وصلنا منها بالدقة وحسن البيان وجمال الأسلوب وغزارة المادة.

انطلقت فكرة هذا البحث مما اشار اليه أستاذنا الدكتور نعمة رحيم العزاوي (رحمه الله) – ذات يوم في جلسةٍ مَجيدة – في أن الذي يتأمل تراث الجاحظ، يجد فيه ملامح كثيرة من علم اللغة الحديث، تدلل على أن العرب عنوا بلغتهم عناية كبيرة، ودرسوها درسا شاملا لم يحصل نظيره في اللغات القديمة الأخرى. فشرعت بتتبع تلك الملامح وتسليط الضوء عليها في هذا البحث الذي يقوم على تعريف الجاحظ للبيان وكلامه على أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ التي عدَّها خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخطّ، ثم الحال. ومن ثم موازنتها بأحدث تعريفات اللغة عند المحدثين.

أولا: موازنة بين مفهوم البيان عند الجاحظ ومفهوم اللغة عند اللغويين المحدثين

البيان لغةً:

بان الشيء وأبان وتبيَّن وبيَّن واستبان... كلها بمعنى الوضوح والانكشاف، والبيِّن من الرجال: الفصيح، والبيان: الفصاحة واللسن[1]، وبهذا ينتظم لفظ البيان معنى الدلالة والفصاحة والوضوح والكشف والظهور. وقد ورد هذا اللفظ بهذا المعنى، أي الوضوح والانكشاف في آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ((الرحمنُ * علَّمَ القرآنَ * خلقَ الإنسانَ. علَّمَهُ البيانَ)) (سورة الرحمن:1 ـ 4)، يرى ابن كثير أن معنى البيان في الآية هو اللغة يستند في ذلك إلى كلام الحسن البصري:((قال الحسن: يعني النطق))[2]. وقال الطبرسي(548هـ):)(أي النطق والكتاب والخط والفهم والإفهام))[3]، وفي قوله تعالى ((ثمَّ إنَّ علينا بيانه)) (سورة القيامة:19)، يرى ابن كثير أن المعنى هو ((أي بعد حفظه وتلاوته، نُبَيِّنُه لك، ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا))[4].

البيان اصطلاحًا:

قال الشريف الجرجاني (ت816هـ)، البيان: ((هو النطق الفصيح المعرب، أي المظهر عمَّا في الضمير. والبيان: إظهار المعنى، وإيضاح ما كان مستورا قبله، وقيل: هو الإخراج عن حد الإشكال، والفرق بين التأويل والبيان، أن التأويل ما يذكر في كلام لا يفهم منه معنى محصل في أول وهلة، والبيان ما يُذكر فيما يُفهم ذلك لنوعِ خفاء بالنسبة إلى البعض))[5]. والبيان: ((أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى بطرق يختلف بعضها عن بعض في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى)) [6].

مفهوم البيان عند الجاحظ:

قال الجاحظ: ((وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح والإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه. وبذلك نطق القرآن))[7]. واذا تأملنا كلام الجاحظ في البيان، نلحظ مفهومين دار حولهما كلامه على البيان:

أحدهما: مفهوم عام، تكون فيه للفظة البيان دلالة تساوق دلالة كلمة (لغة)، أو التعبير عن معنى من المعاني بوسائل التعبير الممكنة.

والآخر: مفهوم خاص، تكون فيه لفظة (بيان) منتظمة معنى بلاغة التعبير بلغة الكلام المقول، أو المدون وحده من دون وسائل التعبير الأخرى، فالبيان على وفق هذا المفهوم مرادف للفظة بلاغة التي يستعملها عند الحديث عن الأدب.

تعريف الجاحظ للبيان:

قال أبو عثمان الجاحظ: ((البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحُجُب دون الضمير، حتى يفضي السامع الى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع))[8]. وبتحليل تعريف الجاحظ للبيان نجد أنه قد حدَّد المحاور الرئيسة في عملية إنتاج الكلام التي أكدها الدرس اللغوي الحديث، وهو ما أطلقنا عليه ملامح علم اللغة الحديث عند الجاحظ، وهي:

1 ـ العين: (بين) 1/ 208-209، والمصباح المنير: (بين) 43.
2 ـ تفسير القرآن العظيم: 271/4.
3 ـ مجمع البيان: 4/ 229.
4 ـ تفسير القرآن العظيم: 7 / 170.
5 ـ التعريفات، للجرجاني:54.
6 ـ جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: 244-245.
7 ـ البيان والتبيين: 1/ 56.
8 ـ البين والتبيين: 1/ 56.

1- تنحصر عناصر الاتصال في اللغة بـ: المُرسِل (المتكلم)، والمستقبِل(السامع)، والرسالة أو الخطاب، وهي(مادة الكلام)، الفكرة أو المضمون المراد إيصاله بمجموعة من الرموز، و المجال الناقل لمضمون الرسالة. وهذه العناصر قد انتظمها قوله تعالى:)(ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنَّه عليٌّ حكيم))(الشورى:51)، فالمتكلم هو الله سبحانه وتعالى، والسامع هو بشرٌ، والكلام هو مادة الخطاب، والوسط الناقل هو الفضاء ما بين المُرسل والمتلقي، فالله جلَّ وعلا يكلم عباده لإبلاغهم رسالته. وربما هذا ما دعا الجاحظ إلى أن يسمي كتابه (البيان والتبيين).

ومصطلح البيان عند الجاحظ جامع لكل طرق الاتصال ووسائل التبليغ في المجتمع. ومع ذلك فأن استعمال كلمات مثل السامع والقائل قد تؤكد أن الكلام المنطوق أو اللغة المنطوقة أو اللفظ، تأتي عنده في المقام الأول من وسائل البيان الأخرى، ومن هنا نلاحظ أن التعريف الذي قدمه الجاحظ للبيان في حقيقته تعريف شامل للغة ووظائفها وعناصرها ووسائل التواصل التي توفرها في الربط بين الباث (المتكلم) والمتلقي (السامع) بما يراد ايصاله(الرسالة). إنّ ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبِّر عنه هو الافكار والمعاني، والانفعالات، والرغبات، أو الفكر بوجه عام[1]، فهي وسيلة التواصل لأهداف وغايات معينة[2]. وتعبير الجاحظ بالبيان قد يكون من باب تسمية الشيء باسم بعض أجزائه، فهو قد سمى الباب المعقود لهذا الغرض بباب البيان[3].

2- إنَّ اللغة مجموعة من الرموز الصوتية وغير الصوتية، فالبيان عند الجاحظ بيانان:

أ ـ البيان اللفظي: ويتكون من طريق اللغة الصوتية المشتركة بين المتكلم والمخاطَب بما هو مشترك بينهما من ألفاظ احتوت عليها الرسالة المصوغة باللغة المشتركة بينهما. واللغة (اللفظية) هي الوسيلة الرئيسة من وسائل الاتصال، واليها يشير المعنى المتبادر الى الذهن من معاني كلمة (لغة)، وهي مرحلة متقدمة من مراحل التعبير عند الانسان[4].

ب ـ البيان غير اللفظي: ويتكون من دوالّ أخرى سوى اللفظ من وسائل التعبير التي أشار إليها الجاحظ بقوله: ((وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ: خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخطّ، ثم الحال، وتسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات))[5]. والذي يظهر من ترتيب الجاحظ لهذه الدوالّ الخمسة التي قال عنها: إنَّها لا تنقص ولا تزيد، أنه ابتدأ بما هو أكثر استعمالا، فالكلام المنطوق ثم الإشارة ثم العقد...إلخ. غير أنَّ هذه الدوال تتباين فيما بينها، إذ إن ((لكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصِّها وعامِّها))[6].

وهذه الوسائل أو الدوال هي التي ينعقد عليها إظهار مجمل المعنى وإبانته، ثم يتدرج ذلك الاظهار ويزداد الوضوح حتى يصل السامع أو المتلقي إلى حقيقة ذلك المعنى عند التفسير. وفي هذا إشارة واضحة إلى التفريق بين عين المعنى وحقيقته، فالمعنى يظهر أول مرة مجملا، ثم تتظافر هذه الوسائل في إيصال المتلقي إلى حقيقة ذلك المعنى، وذلك يحدث عند التفسير والتحليل؛ إذ لا يمكن لوسيلة واحدة فقط إظهار المعنى، وإلى هذا توصل المحدثون في دراساتهم اللغوية؛ فالمعنى لا يظهر بقرينة واحدة، بل لابد من تظافر عدد من القرائن على تبيينه[7]. ولأنَّ كل دراسة لغوية لابد من أن يكون موضوعها الاول والأخير هو المعنى وصلته بالمبنى، لذا يعد الارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة[8].

1 ـ علم اللغة، د. الضامن:133.
2 ـ ينظر: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة: 83.
3 ـ ينظر: دراسات في اللغة والمعاجم: 267.
4 ـ ينظر: علم اللغة، د. علي وافي: 47.
5 ـ البيان والتبيين: 1/ 57.
6 ـ البيان والتبيين: 1 / 57.
7 ـ ينظر: البيان في روائع القرآن , تمام حسان: 223.
8 ـ اللغة العربية معناها ومبناها , تمام حسان: 33.

على أنَّ الجاحظ لم يقصر وسائل إبانة المعنى وإيصاله على اللغة المنطوقة كما هي الحال عند ابن جني (ت 392هـ) الذي قال في حدِّ اللغة: ((هي أصوات يعبِّرُ بها كلُّ قوم عن أغراضهم))[1]. ولعل ما ذهب إليه الشريف الجرجاني يكاد ينطبق على ما انتهى إليه علم اللغة الحديث من أنواع اللغات، غير أنه اكتفى بالإشارة الى تلك الانواع باستعمال (ما) الدالة على العموم إذ قال:((هي ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم))[2]، ولعله تنبَّه إلى هذه الانواع وإلا لماذا استعمل(ما) بدلا من(أصوات)؟.

وبهذا نلمح لعلمائنا القدماء فضل السبق في ذكر أنواع الدلالات على المعاني، ولا مجال لمن يدعي من الغربيين أنه هو من وسَّع دلالة اللغة؛ نعم هم حاولوا ترتيبها بما يتلاءم وعلم اللغة الحديث، ولعقد موازنة بين ما توصل إليه علماؤنا القدماء وما ادَّعاه الغربيون لابدَّ من إيراد بعض تعريفاتهم:

1. قال العالم اللغوي الامريكي ادوارد سابير إنّ اللغة ((طريقة أو وسيلة إنسانية خالصة وغير غريزية إطلاقا لتوصيل الافكار والانفعالات والرغبات بوساطة نظام معين من الرموز اختاره افراد مجتمع ما واتفقوا عليه))[3].
2. قال سويسر: ((اللغة نظام من الاشارات التي تعبِّر عن الافكار))[4].
3. قال ماريو باي ((اللغة كل شيء له معنى مفيد))[5].

والمتأمل في هذه التعريفات يجد أنَّ اللغة لا تقتصر على صورتها المتكلمة فقط، وإنما تحتوي فضلا على ذلك الاشارات والايماءات وتعبيرات الوجه والرموز. فاللغة في العصر الحديث لم تعد مقتصرة على الكلام وإنما تعدته إلى كل شيء له معنى مفيد، وبذلك تنحصر تلك التعريفات في أن اللغة وسيلة التعبير أو وسيلة التفاهم، والتعبير والتفاهم متلازمان، فالمتلقي يعبِّر، والسامع يفهم. وعند الموازنة بين هذه التعريفات وتعريف الجاحظ للبيان نجد أنَّ الجاحظ هو السابق في الإشارة إلى حقائق اللغة و ما تؤديه من وظائف، ومن ثم فاللغة في كل زمان وعند كل أمة من بني البشر عناصرها هي هي، وهذه العناصر:

أ. إنَّ اللغة عبارة عن نظام، وذلك النظام يخضع لقوانين وقواعد محددة[6]. والجاحظ وإن لم ينص على كلمة نظام بالمعنى المتداول اليوم عند علماء اللغة المحدثين والمعاصرين فإننا نلمح أنه كان على إدراك عال لهذا النظام الذي حدد وسائله بالدوال الخمس المذكورة آنفا. فضلا على إدراكه جانبي هذا النظام اللغوي وهما الصوت والمعنى وهو ما يطلق عليه المحدثون ثنائية التركيب[7].

ب. التواضع (الاصطلاح) الذي تواضع عليه أهل اللغة، والجاحظ يرى أن أي نظام من نظم البيان أو الاتصال يخضع لعادات الناس، بمعنى أن ذلك يستلزم نظاما محدودا من العلامات أو الرموز المتفق عليها بحيث يستطيع من يستعمل هذا النظام أن يكوِّن تشكيلات مختلفة من هذه الرموز أو العلاقات[8]. واللغة ليست كالكلام من حيث إنها مادة مشتركة لا يمكن نسبتها إلى شخص بعينه، فاللغة مجموعة من العلامات كما يقول المحدثون اليوم، أو كما يراها علماؤنا القدماء(نظما) أي تعليق لفظ بلفظ. وهي العلامات التي تواضع أبناء المجتمع على استعمالها[9].

ت. إنَّ اللغة مجموعة من الرموز (العلامات) صوتية أو غير صوتية، ولو أعدنا صياغة كلام الجاحظ على أصناف الدوال على وفق النظرية اللغوية الحديثة لوجدنا ثلاثة منها يهتم بها علم اللغة الان وهي اللفظ، والاشارة، والخط[10]. والحق أنَّ الدالتان الأخريان داخلتان ضمنا في إطار الاشارة على وفق المفهوم الحديث، فاللغة (نظام من الاشارات) كما عبَّر دي سويسر[11].

---

1 ـ الخصائص: 32/1.
2 ـ التعريفات: 189.
3 ـ مقدمة في اللسانيات: 35.
4 ـ علم اللغة العام: 34.
5 ـ أسس علم اللغة , ماريو باي: 35.
6 ـ ينظر: مقدمة في اللسانيات: 35.
7 ـ ينظر: دراسات في اللغة والمعاجم: 273.
8 ـ ينظر: دراسات في اللغة والمعاجم: 274.
9 ـ ينظر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب:65.
10 ـ ينظر: دراسات في اللغة والمعاجم: 268.
11 - علم اللغة العام: 34.

وهذه الرموز (الاشارات) تختلف من مجتمع لآخر، فربَّ إشارة ما في مجتمع معين تدل على شيء، لا تدل عليه في مجتمع آخر، ((فدلالة الكلمة بالوضع على ما تستعمل له دلالة عرفية))[1]. وقد أشار الجاحظ الى سعة مفهوم الرمز بقوله ((فبأي شيء بلغت الافهام، وأوضحت عن المعنى؛ فذلك هو البيان في ذلك الموضع))[2].

ث. اجتماعية اللغة، إذ هي وسيلة التفاهم التي يتحدث بها أفراد مجتمع متجانس لغويا. والوظيفة الاجتماعية من أهم وظائف اللغة، فلا لغة بلا مجتمع، ولا مجتمع بلا لغة، والجاحظ في (البيان والتبيين، والحيوان، ورسائله الأخرى)، تناول مسائل علم اللغة الاجتماعي تناولا أصبح في العصر الحديث ذخيرة جيدة للدارسين في هذا المجال فقد جعل الكلام طبقات كطبقات الناس[3]. وهو ما اتفق عليه علماء اللغة في حديثهم عن اللغة والطبقات الاجتماعية. وبصورة عامة فإن الكلام عند الجاحظ ظاهرة اجتماعية تتغير مبنى ومعنى على وفق احتياجات الناس والمجتمع[4].

ج. الاتصال أو الوظيفة التواصلية للغة، فالتعبير والتفاهم يعدَّان من أهم وظائف اللغة على الاطلاق. وسبق الحديث عن أن الجاحظ قد عبَّر عن البيان بأنه وسيلة اتصال، وجعل الفهم والافهام الغاية منه؛ ((لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام، فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى؛ فذلك هو البيان في ذلك الموضع))[5]. وترتبط هذه النقطة بسابقتها ارتباطا عضويا، فالوظيفة الاجتماعية للغة بالأساس هي التواصل، إذ يعمل التواصل على اتساق العلاقات الاجتماعية بين أبناء المجتمعات[6].

ولو عقدنا موازنة بين ما يفخر به علماء اللغة الغربيون في أنهم وسعوا دلالة اللغة وبين ما تضمنه باب البيان عند الجاحظ لوجدنا أن له الريادة في هذه المسألة، إذ أشار إلى أن وسائل التعبير عن المعنى هي:

1- اللفظ: وأراد به الجاحظ اللغة المنطوقة الدالة على معنى، وهو مزية الإنسان وخاصته الأساسية التي بها يتحدد نوعيا عن بقية الكائنات الحية في قدرته على الكلام و الإفصاح عن نفسه بالألفاظ، وفي هذا إشارة واضحة إلى تنبه الجاحظ إلى أهمية علم تشكيل الأصوات للدلالة على المعاني المرادة. وهذا ما أشار إليه اللغويون المحدثون.

2- الاشارة: وهي دالة على معنى معين بحركات يؤديها الانسان باليد والرأس والعين... إلخ. وهذه الحركات التي يؤديها الانسان تفيد معنى مستقلا بنفسه، فرفع السيف دلالة على التهديد، ورفع السوط دلالة على الزجر، قال الجاحظ: ((وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون من الدالّ والشكل والتفتل والتثني واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور))[7].

يتضح مما تقدم أن هذه الاشارات تمثل لغة من لغات البيان تعوض في بعض الاحيان عن الكلام، إذ يعبر الإنسان بحركة إحدى أدواتها -(أعضاء جسمه)- عن حاجة نفسه ومكنوناتها، على أن الافصاح باللسان قد لا يخلو أحيانا من حركة اليد أو الرأس أو الحاجب فهذه الحركات ملازمة للبيان باللسان، تؤكد بعض دلالاته وتقويها، أو تكشف عما لا يستطيع اللفظ أن يبوح بسرِّه أحيانا، وفي ذلك يقول الجاحظ: ((والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ))[8]. ولعل أهم ما استدركه اللغويون المحدثون و المعاصرون على الجاحظ في دالة الإشارة هو قسمتها على مقصودة وغير مقصودة. والإشارة في علم اللغة الحديث كما يذكر سوسير أنها تتكون من عنصرين [9]:

أحدهما: الدال: وهو مجموعة من الأصوات التي يصدرها الفرد، فهو بهذا يمثل الصورة السمعية للفرد.

1 - اللغة العربية معناها ومبناها: 29.
2 - البيان والتبيين: 1/ 56.
3 - ينظر: البيان والتبيين: 1/ 69 – 70.
4 - ينظر: دراسات في علم اللغة والمعاجم: 281.
5 -البيان والتبيين: 1/ 56.
6 - المحاورة مقاربة تداولية: 45.
7 -البيان والتبيين: 58/1 - 59.
8 - البيان والتبيين: 1 / 57.
9 - ينظر: علم اللغة العام:84- 86.

والآخر: المدلول: ويقصد به الصورة الذهنية التي تتكون في مخيلة السامع عند سماع الدال.

ولا يخرج ما قرره الجاحظ في هذا الدال (الإشارة) عما أكده الدرس اللغوي الحديث إلا بتسمية الاشارة بـ (لغة الجسد). على أن الجاحظ قد تنبه إلى أن((مبلغ الاشارة أبعد من مبلغ الصوت))[1]، وهذا ما توصل إليه المحدثون أيضا إذ خلصوا إلى أن الايماءات أسبق وجودًا من الكلام، أعقبها التعبير بالصور الذي أدى إلى اختراع الكتابة [2].

3- الخَط: وهو ما يقابل مصطلح اللغة المكتوبة عند علماء اللغة المحدثين والمعاصرين[3]، وقد أورد الجاحظ أقوالا تدل على فضل القلم منها: ((القلم أحد اللسانين... القلم أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا... اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب))[4]. يوازن الجاحظ بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ليظهر أهمية الكتاب والخط في نقل الارث الحضاري للأمم والتواصل بين أجيالها، وفي ذلك إشارة إلى أهمية اللغة المكتوبة في تعرف اللغات القديمة أو الميتة.

4- العَقد: قال الجاحظ فيه هو ((الحساب دون اللفظ والخط 000والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا. لما فهموا عن الله الحساب في الآخرة، والعقد هو الحساب بعقد الاصابع))[5]، ويقابله الرمز عند اللغويين المحدثين والمعاصرين الذين استدركوا على الجاحظ قسمة الرموز على قسمين: رموز مكتوبة كالعلامات المرورية، وأخر مسموعة كصوت الجرس.

والرمز لفظ قرآني ورد ذكره مرة واحدة في قوله تعالى ((قال ربِّ اجْعَل لي آيةً قال آيتُك ألَّا تكلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلَّا رَمْزًا)) (آل عمران/41). يرى الآلوسي أن معنى الرمز في الآية الكريمة هو حركة المسبحة أو الخط والكتابة على الارض[6].

5- النِّصبة: قال الجاحظ: ((هي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والارض، وفي كل صامت وناطق... فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان))[7]؛ ولذلك قال الفضل بن عيسى: ((سل الارض فقل: من شقَّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا))[8]، يبدو لي أن النصبة عند الجاحظ قد اكتسبت دلالتها من معاني لفظة (نُصُب) المنتظمة لمعنى كل ما نُصِب وجعل علَمًا على شيء من الجمادات وغير الجمادات في مكان وزمان معلومين[9]، والنصبة أو الحال الدالة هي وسيلة العقل إلى الاستبانة والاستيضاح لما توحي به الأشياء لعقل الناظر وذهن المتبصر، وهذا ما اصطلح عليه المحدثون والمعاصرون (بالهيأة الدالة).

نخلص مما تقدم إلى أن الجاحظ هو أول من وسَّع دلالة اللغة، لا كما يدَّعي اللغويون الغربيون، إذ اهتم بفهم المعنى وتبيين دوره في مستويات التحليل اللغوي. وبناء على هذا المفهوم الواسع استقى المحدثون منهجهم في دراسة اللغة على المستويات الاربعة: الصوت والصرف والنحو والدلالة، وهذا ((ما يؤدي في النهاية الى أن تكون اللغة في عمومها نظاما عرفيا يشرح العلاقة الاعتباطية بين الرمز و المعنى من حيث عرفيتها واطرادها))[10].

1 - البيان والتبيين: 1 / 58.
2 ـ ينظر: اسس علم اللغة , ماريو باي: 39.
3 ـ دراسات في اللغة والمعاجم: 168.
4 - البيان والتبيين: 1 / 59.
5 - البيان والتبيين: 1 / 59.
6 ـ ينظر: روح المعاني: 3/ 151.
7 - البيان والتبيين: 1 / 59 -60.
8 - المصدر نفسه.
9 - ينظر: تاج العروس (نصب) 274/4.
10 ـ اللغة العربية معناها و مبناها: 42.

ثانياً: اللغة والكلام بين الجاحظ واللغويين المُحدثين

عرَّف الجاحظ البيان، وهو تعريف ينطبق تماما على أية لغة في نظر علماء اللغة المحدثين، إذ إن الغاية النهائية للبيان إنما هي الفهم والإفهام، وتتضح تلقائيا في أن اللغة تتكون من مجموعة رموز وعلامات تؤدي معنى محددا يؤول في نهاية الأمر إلى تحقق الفهم والإفهام، فالمعنى هو المحور الذي تقوم عليه عملية الاتصال، وهو الأساس في كل اللغات.

وقد فرَّق الجاحظ بين اللغة والكلام إذ جعل اللغة مجموعة من الحروف التي هي رموز غير منطوقة، لكنها بالتأليف والتقطيع تصير كلاما، فقال: ((ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما منثورا إلا بظهور الصوت. ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف))[1]، وهذا ما يتساوق ونظرة المحدثين إذ يرون أنَّ ((اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة، فاللغات البائدة (الميتة) مع أنها لم تعد تستخدم في الكلام نستطيع بسهولة أن نتعلم أنظمتها اللغوية))[2]، وهذا يوحي لنا: ((أن الكلام عمل واللغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك، واللغة معايير هذا السلوك))[3].

إننا نجد في تعريف الجاحظ للبيان تلميحا إلى علم اللغة الحديث، يعضد زعمنا هذا أنَّ الجاحظ نفسه في حديثه عن النصبة قال: ((وهذا شائع في جميع اللغات))[4]، ولأنه أديب بليغ، ومن سمات الأدباء والبلغاء الإشارة والرمز وإيثار باطن اللفظ على ظاهره؛ نرى أنه آثر مصطلح البيان ليدلّ به على اللغة، وهذا ما يعزز رؤية أستاذنا المرحوم الدكتور نعمة رحيم العزاوي في أن ثمة ملامح كثيرة من علم اللغة الحديث تتجلى في تراث الجاحظ، تلك الرؤية التي كانت سببا في كتابة هذا البحث وأخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وال محمد الطيبين الطاهرين.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة العلمية في رحاب أدب الجاحظ اتضحت لنا تجليات علم اللغة الحديث فيه من خلال تطابق الفكر الإنساني المبدع في أدوار الحضارة الإنسانية المختلفة، فالجاحظ قبل أكثر من ألف عام فهم اللغة فهما يطابق إلى مدى بعيد ما يقدمه علماء اللغة المحدثون من تعريفات متقدمة للغة مستعينين بما تحقق من تطور كبير في علم اللغة واللسانيات الحديثة في القرون الأخيرة. وقد أشَّر البحث تجليات ذلك الفهم اللغوي المشترك في ما سماه الجاحظ بالبيان وأصناف الدلالات المنتظم لها من لفظ وإشارة وخط وعقد وحال وما سماه المحدثون باللغة وكونها نظاما من الإشارات والرموز. ووجد البحث أن فضل السبق في سبر غور هذا الميدان لا يتعدى العالم العربي الجاحظ إذ كان قطب الرحى في تأصيل المصطلح، وكل اللغويين الذين درسوا علم اللغة من بعده هم عيال عليه.

1 - البيان والتبيين: 1/ 58.
2 - علم اللغة: 32.
3 - اللغة العربية معناها و مبناها: 32.
4 -البيان والتبيين: 1 /60.

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم.

* أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة د. أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية 1973م.

*البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، ط1 عالم الكتب، القاهرة 1413هـ – 1993م.

*البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق د. درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت 2011م.

* تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني، تحقيق مجموعة من الباحثين المعاصرين، طبعة الكويت.

*التعريفات، للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني الحنفي (ت816هـ)، تحقيق محمد علي أبو العباس، دار الطلائع، القاهرة 2009م.

* تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 2002م.

*جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت 2006م.

*الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ) تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م.

*دراسات في اللغة والمعاجم، د. حلمي خليل حلمي، لبنان، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى 1998م.

*روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين الآلوسي (ت1270هـ) دار الفكر، بيروت 1978م.

*علم اللغة، د. حاتم صالح الضامن، العراق، الموصل، مطبعة دار الحكمة، 1311هـ 1990م.

*علم اللغة، د. علي عبد الواحد وافي، مصر، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الرابعة 1957م.

*علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة د. يؤيل يوسف عزيز، العراق، بغداد، سلسلة آفاق عربية، الطبعة الثالثة 1985م.

*العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، تصحيح أسعد الطيب، مطبعة باقري ط1، 1414هـ.

* اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، د. نعمان بوقره، الأردن عالم الكتب الحديث الطبعة الأولى 1430هـ 2009م.

*اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، مصر 3, القاهرة، عالم الكتب، الطبعة السادسة 1430هـ 2009م.

*مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي(ت548هـ)، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى 2002م.

* المحاورة مقاربة تداولية، د. حسن بدوح، الأردن، اربد، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى 2002م.

* مدخل الى اللسانيات د. محمد محمد يونس علي، لبنان، بيروت، دار الكتابة الجديد، الطبعة الأولى 2004م.

* المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، بيروت، لبنان ناشرون، الطبعة الأولى 2001م.

* مقدمة في اللسانيات د. عاطف فضل محمد، الأردن، عمان، دار المسيرة، الطبعة الأولى 2011م.